**التوحيد في اليهودية**

**أسماء عريف**

 يعد مفهوم التوحيد من المفاهيم الفياضة ذات الإطار الفلسفي والديني، حيث بٌنيت عليه الأديان السماوية الثلاثة بل توقفت عليه نشأتها، ويشمل تفسيره مناحي الفكر بوصفه إطاراً لهذه الأديان، فهو يعني الإيمان والتصديق والتسليم. والتوحيد بشكل عام هو مذهب فلسفي أو ديني لا يُسلم إلا بإله واحد، متميز من العالم؛ ويذهب أ. ت. أورموند إلى تعريفه تعريفاً فلسفياً بأنه يكمن في المذهب القائل أن الله هو كائن لا يقبل الانقسام كما يسلم بأن التوحيد هو نوع من أصنافه الربوبية ووحدة الوجود وهو يتعارض مع الشرك، وهو طابع مشترك بين اليهودية والمسيحية والإسلام.([[1]](#endnote-2)) وهو ثلاثة أنواع: توحيد الأفعال، والصفات، والذات؛ ويجاور التوحيد الإلهي أي عبادة إله مطلق. ومفهوم التوحيد فلسفياً هو الذي يكون خالصاً من الشركين الجلي والخفي من مشاهدة الغير في الوجود المطلق، ظاهراً أو باطناً بحيث لا يشاهد معه غيره، فلا يشاهد مع الحق غير الحق..([[2]](#endnote-3))

ففي اللغة التوحيد عبارة عما به يصبح الشيء واحداً، أما اصطلاحاً: (1) التوحيد هو الإيمان بأن الله واحد لا يشاركه فيما يستحق من الصفات نفياً أو ثباتاً. (2) تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان. (3) أما التوحيد عند المعتزلة الأصل الأول من الأصول الخمسة، ويدل على تنزيه الله ومن ثم يؤولون الأيات التي يدل ظاهرها على التجسيم، فيفسرون قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"([[3]](#endnote-4)) ينفي المماثلة عن ذاته.([[4]](#endnote-5))

فالتوحيد إذاً هو الإيمان بإله واحد لا شريك له، وفي اللغة كما قال الجرجاني: هو الحكم بأن الشيء واحد، وفي اصطلاح أهل الحقيقة تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام ويتخيل في الأوهام.([[5]](#endnote-6))

تعود بداية اليهود كأمة ذات تاريخ وعقيدة إلى تلك الفترة التي أرسل الله تعالى فيها نبيه موسى عليه السلام إليهم بالتوراه لهدايتهم وتخليصهم من عبادة ما سواه. وقد نشأة أمة اليهود في مصر إثر استقرار أبناء يعقوب ابن إسحق ابن ابراهيم فيها، حيث عاشوا بمصر حياة مستقرة منذ عهد يوسف عليه السلام. بيد أنه لا شك أن منذ اللحظة التي بُعث فيها موسى عليه السلام، بدأ ما يسمى بالديانة اليهودية كدين سماوي ودين توحيد.. وقد خضعت الديانة اليهودية للعوامل التاريخية وتأثرت بها حتى أن اسم الديانة نفسه تغير من عصر إلى عصر وفقاً لتاريخ بني إسرائيل، حيث سميت الديانة بالديانة العبرية في المرحلة العبرية من تاريخ جماعتهم، وسميت بديانة بني إسرائيل في المرحلة الإسرائيلية من عصر يعقوب عليه السلام إلى السبي البابلي، وأدت أحداث السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد إلى تطور اليهودية واتخاذ الديانة لهذا الاسم منذ ذلك العصر.([[6]](#endnote-7))

وبشكل عام توجد داخل اليهودية طبقة توحيدية تدور حول الإيمان بالإله الواحد الذي لا جسد له ولا شبيه، الذي لا تدركه الأبصار وتعتمد عليه المخلوقات كافة ولا يعتمد هو على أي منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها. وقد بلغ التوحيد في اليهودية ذروته على يد بعض الأنبياء الذين قاموا بتخليص التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به. كما أن التيار التوحيدي استمر في مختلف فترات التاريخ اليهودية حيث تتضمن الصلوات اليهودية دعاء الشماع، أي شهادة التوحيد، هذا بالإضافة إلى قصائد مثل "آني مأمين" (إني مؤمن)، و "يجدال" (تنزه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد([[7]](#endnote-8))

وقد حافظت اليهودية على صفتها القديمة كديانة توحيدية نبوية يقوم الاعتقاد فيها على وجود إله واحد خالق للبشرية والكون مسيطر على الطبيعة والتاريخ. كما أن هذه الصفة التوحيدية هي التي ميزت ديانة بني إسرائيل في التاريخ القديم وحتى ظهور المسيحية عن بقية أديان العالم التي آمنت بتعدد الآلهة؛ بيد أن مفهوم التوحيد تعرض لبعض التغيير كنتيجة لاحتكاك ديانة بني إسرائيل بالديانات الوثنية وبخاصة في الشرق الأدنى القديم، حيث حُولت اليهودية إلى ديانة قومية ونتج عن ذلك حدوث تغير في صفات الإله الواحد وبالتالي في مفهوم التوحيد.. فالإله الواحد حسب الفهم القومي إله خاص ببني إسرائيل، فالاعتراف بخصوصية الإله لبني إسرائيل يجعل من التوحيد شيئاً خاص بإسرائيل وليس توحيداً عاماً، مما سمح بالاعتراف بوجود آلهة أخرى للأمم الأخرى، مما أدى بدوره إلى مشكلة دينية فلسفية لم تتخلص منها اليهودية حتى الآن؛ وهي مشكلة التوفيق بين عالمية الإله وخصوصيته.

والحقيقة أن الديانة اليهودية هي من صنع الأزمات التاريخية للجماعات اليهودية عبر التاريخ، فكل أزمة تاريخية تؤدي إلى مزيد من الصياغة والتشكيل للديانة. وحول هذه الأزمات تطورت مفاهيم العهد والاختيار والخلاص والثواب والعقاب؛ هذا الشتات فُسر دينياً على أنه شكل أساسي من أشكال العقاب اللإلهي لبني إسرائيل؛ إلا أن هناك من ذهب إلى تفسيره بأنه مقصد إلهي لنشر رسالة التوحيد بين الشعوب وتعريفهم بإله بني إسرائيل.([[8]](#endnote-9))

إن ديانة الآباء العبريين كانت ديانة بسيطة غير معقدة يغلب عليها الطابع البدوي الصحراوي كديانة العرب قبل الإسلام، حيث أنها لم تكن تشتمل على بناء عقائدي متكامل، إلا أن المفهوم الديني الوحيد الذي بدأ بدوره خلال هذه الفترة هو مفهوم التوحيد؛ والذي لم يبدأ توحيداً خالصا. لكنه شق طريقه وسط نظام تعددت فيه الآلهة التي يُعتقد أن العبريين القدامى قد عبدوها. وبذلك فإن ديانة العبريين الأساسية ديانة تعدد وثنية ولم تظهر بشائر التوحيد إلا على يد بعض الآباء ومن أهمهم ابراهيم عليه السلام الذي يعد عصره بداية التوحيد وبالتالي بداية التاريخ الديني التوحيدي.([[9]](#endnote-10))

وتعد شخصية ابراهيم عليه السلام هي الشخصية الدينية الأساسية في مرحلة الآباء، حيث كان هو المتلقي الوحيد للوحي الإلهي، كذلك مُستقبِل للأوامر الإلهية في ثوب الطاعة التامة؛ وتعتبر حياته نموذجا لحياة الإيمان كما أنه أول من نبذ عبادة الأصنام معترفاً بإله واحد..([[10]](#endnote-11))

وفى مصر دعا يوسف– عليه السلام– المصريين إلى التوحيد، وزاد عدد بنى إسرائيل في مصر بمرور الزمن حتى وصل في تقدير المؤرخين إلى نصف مليون ، ويلاحظ هنا أن هذه هي الهجرة الثانية من فلسطين إلى مصر ، وأما الأولى فكانت من العراق إلى فلسطين في عهد إبراهيم عليه السلام وقد قام الفراعنة في مصر بإذلال الإسرائيليين واستبعادهم فترة طويلة من الزمن من بعد وفاة يوسف عليه السلام إلى أن نجاهم الله مع موسى عليه السلام وقد ذاقوا في هذه الفترة صنوفا من العذاب والذل والهوان

أما المرحلة الثانية من مراحل تطور اليهودية كعقيدة وشريعة، هي مرحلة موسى عليه السلام؛ وهي أهم مرحلة في هذا التطور الديني لأنها الفترة التي تم فيها الاعتماد على الوحي كمصدر للعقيدة والشريعة. ومن المهم هنا الإشارة إلى أن العقيدة الأساسية التي تمت بلورتها خلال عصر موسى عليه السلام هي عقيدة التوحيد، فكما يبدو من صفحات التوراه، فإن التوحيد كان توحيداً خاصاً بالإسرائيليين وذلك لأن هناك إشارات إلى وجود آلهة أخرى لأقوام آخرين غير الإسرائيلين. وهذا يعني أن الإله الاسرائيلي لم يكن الوحيد الموجود آنذاك، فقد كان هناك آلهة أخرى إلا أنها لا تخص الإسرائيليين.([[11]](#endnote-12))

وقد نصت الوصية الأولى من الوصايا العشر على نص عقائدي يؤكد صفة أساسية في الأولوهية وهي صفة التوحيد (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي)، أيضا الوصية الثانية ورد فيها (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض) مما يؤكد صفة التوحيد للإله في الوصايا العشر إلا أن هذه الوصية تحديداً تأخذ شكلاً ميتافيزيقياً لللإله؛ حيث تعني أنه منزه عن الطبيعة التي خلقها ولا يمكن تصويره في صورة من صور الطبيعة المخلوقة.

وقد ورد في الكتاب المقدس ما يؤكد على التوحيد في الدين اليهودي "اِسْمَعْ يَا نإِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ." (سفر التثنية 6: 4(([[12]](#endnote-13))

إلا أن اليهود قاموا بالربط بين العدل وعقيدة التوحيد التي جاهدوا في سبيل إرسائها، فالعدل لا يتحقق إلا بالإيمان بالإله الواحد الحق العادل؛ بحيث أنه إذا تعددت الآلهة فيكون لكل إله هوى ونزوة لا يتحقق معها العدل، ويكون لكل إله وجهة نظر خاصة في الفضيلة والرذيلة ولا أمام وجهات نظر الآلهة المتعددة الخطأ والصواب والخير والشر. بيد أن في الإيمان بالإله الواحد فإن طبيعة العدل الإلهي واحدة ومطلقة، وبذلك يصبح الخطأ والصواب لا خلاف فيهما.([[13]](#endnote-14)) ومن هنا فإن رؤية اليهود أنفسهم للعدل الإلهي تصب ضمنياً في قالب التوحيد. وهي بشكل أو بآخر علاقة منسقة بين الرب والإنسان من جهة وبين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى نظراً لأن مصدر العدل واحد، وتكون طبيعته متكاملة؛ وتوحي هذه الطبيعة بوحدة المجتمع الإنساني، لذا فقد نادى الأنبياء أن أي انتهاك لوحدة المجتمع هو انتهاك للعدل الإلهي وجاهدوا لدفع الظلم أياً كان مصدر الظلم، ونجد أشعياء يشير إلى ذلك واعظاً: "اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، انصروا اليتيم، حاموا عن الأرملة" (أشعياء 17:1). وقد كان للنبي في المجتمع اليهودي مركز سياسي وديني مرموق، فموسى حينما قاد اليهود عند خروجهم من مصر هو من وحد صفوفهم حتى أنه كون وحدة فكرية بينهم.([[14]](#endnote-15))

1. )) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية(المجلد الأول)، ترحمة: خليل أحمد خليل، أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ط2، ص 835. [↑](#endnote-ref-2)
2. )) الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، 1986، ط1، المجلد الأول، ص 306. [↑](#endnote-ref-3)
3. )) سورة الشورى الآية 11. [↑](#endnote-ref-4)
4. )) د. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص 223. [↑](#endnote-ref-5)
5. )) د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي (الجزء الأول)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 360. [↑](#endnote-ref-6)
6. )) د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص 256. [↑](#endnote-ref-7)
7. )) عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيري جديد ج:5، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص 65. [↑](#endnote-ref-8)
8. )) د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ص 255. [↑](#endnote-ref-9)
9. )) د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ص 193. [↑](#endnote-ref-10)
10. )) د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ص 194. [↑](#endnote-ref-11)
11. )) د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ص 196. [↑](#endnote-ref-12)
12. )) د. حسين ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذهبه، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971، ص 159. [↑](#endnote-ref-13)
13. )) د. محمد بحر عبدالمجيد: اليهودية، مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة، 2001، ص 25. [↑](#endnote-ref-14)
14. )) د. محمد بحر عبدالمجيد: اليهودية، ص 26. [↑](#endnote-ref-15)